مادته الابداعية بصورة استعراضية . ولكن هذا الصراع كان مجهولا بالنسبة إلى كاتب العصر القديم . فلم تكن الذات تقابل الموضوع عند هوميروس مثلا وذلك شبيه بحالة الطفل الذي يظل زمنا طويلا لايدرك التقابل بين « الأنا » و « اللاأنا » . لقد ضعف الاحساس العضوي بالوحدة مع مرور الزمن ولكنه لم يختف نهائياً بل ظل موجودا حتى نهاية تقاليد الفن القديم ، وهذا يطبع كل عمل أدبي قديم ، ملحمي هوميروس قبل كل شيء ، بوحدة متميزة تجتذبنا وتبهجنا . ونحن ، في اعتقادي ، نعيش الاحساس نفسه عندما نتأمل أعمال الحفـــر وتزيين المزهريات والتماثيل الطينية التي يستحق كل منها اسم « تحفة فنية » . انك اذ تنظـر إلى تحفة من هذه التحف تأخذك الدهشة من حرية الفنان وخلو باله ، من تناسيه الحكيم لهموم الحياة ومنغصاتها ، من ثقته الطفلية بالمستقبل وايمانه به . هذا هو مايجعل شفتي التمثال تبتسمان ، وعينيه تنظران بفضول إلى كل شيء في العالم ، وباعتزاز وهدوء يجتمعان على نحو رائع مع الايحاء والحركة المعبرة الشجاعة .

وهذا مانجده أيضاً عند هوميروس . الصور « الساكنة » تتناوب مع الصور « الحركية وهذه وتلك صور ناجحة رائعة . لنتأمل المثال التالي :

كان يرتدي حرملة صوفية مزدوجة قرمزية اللون
مزركشة بالذهب مشدودة بحلقـــه مزدوجـــــة
وقد رسم الصانع على الحلقة بمهـــــارة
كلبا رهيبا يغرس أظفاره الجبارة في جسم غزال فتي
.... لقد اذهلت تلك الحلقـــة الجميع
وقد لحظته يضع وشاحا من قماش رائـــــع
كطبقة من رأس بصلـــــــة يابســـــــة
رقيقة وناصعة كالشمس الساطعـــة ، واذ رأت
النسوة هذا القماش الرائع اصبن بدهشة لاتوصف .

و

خرج تيلا موئيد الضخم قلعـــــة الدانيين
مكشراً رهيب الوجه وسار بخطا قوية رنانة
سار بخطا واسعة وهو يؤرجح رمحه الطويل الظـــل .

ليقرر كل قارىء أي الصورتين أجمل ، ولكن عليه ان يتذكر ، على كل حال ان اتهام شعر هوميروس الملحمي بالسذاجة والجمود والعجز عن تصوير الحركة ، اتهام ظالم وغبي .